E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
/Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

يحدق إليها في صمت، حيرة، تردد...

يفكّر مليًّا. بضغطة زرّ على الهاتف، سيتغير كل شيء.

أينقض عهده، ويكسر توبته؟

فكّر جيّدًا يا خالد، إن العودة ليست سهلة بعد الآن...

تُرى ماذا سيفعل؟

أسيتعلم من زلّاته السابقة أم سيضعف؟

أسينجح في الاختبار، أم يستسلم لأفكاره، ويأسه؟

أيعقل!

هل يفعلها حقًّا؟

أسيعيد الكرّة من جديد؟!

****

تمت بحمد الله...

شعوره لا يوصف. عندما أخبره الطبيب بتلك الجملة، "يحتاج إلى عملية ضرورية، وإلا سيموت"

وباهظة الثمن!

لقد عاش هذا من قبل.

هل يسخرون منه؟

الموقف يتكرر معه مرة أخرى،

فماذا هو بفاعل؟

لقد عهد بألا ينحرف عن مساره، هل أقسموا على جعله مُجرمًا؟

وكأن صفحته البيضاء ستتلوث من جديد!

تواصل مع الجميع...

والمشاهد تتكرر، والردود نفسها، والأشخاص لا يتغيرون.

انتهت جميع الحلول أمامه. فأصبح أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يحافظ على عهده، وصفحته البيضاء، تاركاً صغيره "ياسين" للموت، إما أن ينقض عهده في سبيل إنقاذ طفله!

ذهب إلى أحد الأدراج الخاصة به، وأخرج هذه الأجندة.

وفتحها على إحدى الصفحات، حيث تشمل بضعة أرقام. أمام كل رقم اسمه: علي، سالم، مهاب، عمر.

هرول إليه راجياً، متأملًا، أن يخبره أن ابنه بخير.

طفله الصغير "ياسين" مقلة عينيه. تعرّض لحادث على الطريق، حيث صدمته سيارة!

صغيره في خطر، بين يدي الأطباء في غرفة العمليات.

ماذا يفعلون به؟ إنه لا يزال صغيراً.

أسيتحمل جسده تلك الأدوات الحادة؟

يشعر كأن روحه تنسحب من جسده. والهواء يقل، ورئتيه تضيق.

" يا رب احم لي صغيري"

يستمع إلى والدته وهي تهمس بينها وبين نفسها باكيةً: "أستذهب إلى جدك يا عزيزي، هل اشتقت له؟"

لم يتحمّل سماع كلماتها. لن يقوى على فراق صغيره أيضاً. فهو ما زال يتألم على فقدان والده!

****

اسودّت عيناه، وشعر ببرودة أطرافه، وأصبحت أصوات الجميع حوله بطيئة، بل ويتحركون ببطء، كأنهم في مشهد غير واقعي، من خلف شاشة ما، وأحدهم يتحكم من بعيد، فأوقف حركته بضغطة زرّ.

كم من مرة ظننا أن اختبارات الحياة قد انتهت، وأنها ستضحك لنا طوال العمر بعد ما مررنا به من ابتلاءات؟ ولكن كم من مرة خاب ظننا، وعادت الحياة لتختبرنا من جديد؟

خالد أحد هؤلاء الذين ظنوا أن اختباراتهم قد انتهت. فقد مر بالعديد من المحن في حياته، لكنه استطاع أن يتجاوزها جميعًا. ظن أن الحياة ستكافئه على صبره وتحمله، وستمنحه راحة البال والسعادة الأبدية.

ولكنه كان مخطئًا. فلن تنتهي اختبارات الحياة، ما دمنا أحياء، بل الحياة بأكملها ما هي إلا اختبار!

ما زالت الحياة تختبره، ولكن هذه المرة بأصعب الطرق، بابنه، وحياته التي على المحكّ!

هل سيستطيع أن يتجاوز هذا الاختبار؟ أم أن الحياة ستكسره هذه المرة؟

****

في وسط بكاء الجميع، زوجته، والدته، وأبنائه...، مضى بينهم بعشوائية، لا يعلم أين تضعه قدماه.

لكنه تذكّر، نعم، إنه يبحث عن الطبيب .

حتى وجده، فكأنما وجد كنزاً.

وانهارت المنظمة، التي صمدت لسنوات.

وعاد خالد إلى حياته مرة أخرى، إلى توبة جديدة، وعهد بعدم الانحراف عن مساره مجدداً مهما حدث .

وأقدم على فتح صفحة بيضاء، والبدء من أول السطر. وكأنه لم يبدأ من قبل .

****

بعد كل هذه الأحداث التي عاشها، استطاع أن يعيد حياته لمسارها الصحيح، ويستعيد مهنته مجدداً .

عاد إلى منزله، وأبنائه، وزوجته .

عاد إلى نفسه، بعدما قد أوشك على فقدها.

وحينما أصبحت الأمور على ما يرام، أتاه الخبر المشؤوم.

الخبر الذي جعله يسقط من جديد!

****

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي عناء ومشقة، فالدنيا هي دار الابتلاءات.

تنفس الصعداء. وخرج من أسفل المكتب، وفتح باب الغرفة بحذر، وغادرها على الفور.

****

ثلاثة أسابيع فقط، واستطاع الضابط أحمد جمع العديد من الأدلة الكافية؛ كي يزجّ بهم إلى السجن مدى الحياة، بل وشركائهم أيضاً.

أزاح الستار عن العديد من الشخصيات. وكشف الكثير من المعلومات.

لم يكن ليفعل لولا مساعدة خالد.

" حان الوقت للمداهمة يا خالد"

" أشعر بالحماس، ساعات وسينتهي كل شيء"

" ما كنت سأفعل لولا مساعدتك، أشكرك كثيراً يا خالد"

" العفو، لم أفعل شيئاً يا حضرة الضابط، بل أنت من أنقذتني من ظلم نفسي"

****

استطاعت الشرطة، بالاستناد إلى الأدلة التي بحوزتها، أن تقوم بالقبض على جميع أفراد المنظمة، والذين كانوا من الصعب كشف أمرهم، لولا خالد. الذي أسقطهم من الداخل.

اتجه إلى غرفة المدير العام، ودخلها بحذر، ثمّ أغلق خلفه الباب برفق.

جلس أمام المكتب، واستطاع أن يفتح جهاز الحاسوب دون الحاجة لإدخال شفرته. وهي طريقة تعلّمها قديمًا من "مُهاب."

وأخرج من جيبه "فلاش ميموري" صغيرة، وضعها بالجهاز، وبدأ بنسخ جميع الملفات .

يبدو أن عملية النسخ ستستغرق وقتًا أكثر ممّا توقّعه.

بدا مُتوتّرًا، تلفت أعصابه في انتظار انتهاء نسخ الملفات.

وأخيراً اكتملت العملية، فأخرج "الفلاش ميموري"، وأغلق الجهاز مُسرعاً. كاد أن يغادر، لكنه شعر بحركة في الخارج، وسمع صوت خطوات أقدام تقترب من الغرفة.

تقترب، وتقترب، حتى فُتح الباب.

اختبأ أسفل المكتب، ثمّ نظر من أسفله،

إنه المساعد الأول للسيد عمران!

رآه يقترب من الخزنة، وفتحها والتقط بضع أوراق وملفات، وضعها في حقيبته السوداء، ثمّ أغلق الخزنة. وغادر الغرفة.

استمع إلى أصوات أقدامه تبتعد رويداً رويداً. حتى اختفت تمامًا .

"لقد علمت أنك أصبحت أعلى منصبًا في عملك، حتى أنك تخطيت منصب" توفيق "، أليس كذلك؟"

استشفّ نبرة السخرية في حديثها، فزفر أنفاسه بضيق، "وهل هذا شيء يغضبك؟ ألا تريدين لزوجك أعلى المناصب؟"

"أنت تفهم ما أقصده جيّدًا يا خالد"، تنهّدت ثمّ أكملت، "إلى متى؟ ألن نتوب مرّة أخرى؟ ماذا كان سيفعل والدك لو كان على قيد الحياة؟"

"كفى يا أمينة، ماذا تريدين منّي؟"

"اترك العمل مع توفيق، وعُد إلى نفسك يا خالد، كي تستطيع العودة إلينا"

هكذا أنهت حديثها، ثمّ تركته وحيدًا، متألمًا، يصارع أفكاره، وذهبت إلى الغرفة.

****

في ساعةٍ متأخرة من الليل، في شركة "السيد عمران"،

يسير بهدوء في ردهة الطابق الأخير، الإدارات العليا، الطابق المحظور على الجميع.

يلتفت يمينه ويساره، ليتأكّد من عدم وجود أشخاص أخرى، وليس هناك من يراقبه.

****

سهّل قربه من السيد عمران، له الأمر كثيراً، فاستطاع أن ينجز العمل الذي كلفه به الضابط أحمد.

هبط من سيارته أمام الشركة، ودخل بكل ثقة، دخل إلى المصعد وضغط على الطابق "صفر"، فظهرت له خانات أرقام الشفرة، أدخلها بسهولة، فهبط به المصعد لأسفل.

سار في الممر الضيق، حتى وصل إلى غرفة الاجتماعات الخاصة بأعضاء المنظمة. تأكد من عدم وجود أحد هنا، ثمّ دخل إليها.

صعد فوق أحد المقاعد، وأنزل وحدة الإضاءة (ثريا)، وضع بداخلها جهاز الكاميرات التسجيلية الحديث، صغيرًا جدًّا، ولكنه ذو جودة عالية، ثم أعادها في موضعها كما كانت. وغادر المكان على الفور.

****

فعل نفس الشيء في معرض توفيق، ولم يكن الأمر صعبًا بالنسبة له، لقد استطاع كسب ثقة الجميع في فترة قليلة. وأصبح عضوًا أساسيًّا في المنظمة، واليد اليمنى لرئيسها "السيد عمران".

عاد إلى منزله، وجد زوجته في انتظاره، وعلامات الغضب بيّنة على وجهها.

"علمت أنك تعمل لدى السيد توفيق، أليس كذلك؟"

"نعم، صحيح"

"وهل تعلم هوية مَن يعمل تحت إمرته؟"

ضيّق عينيه بتركيز، "لا أفهم"

ابتسم قائلاً: "لا تتحاذق عليّ يا خالد، أنت فهمت ما رميت إليه جيداً". فكّر قليلاً، ثم أكمل "أريدك أن تعمل لدى الشرطة يا خالد، وأعدك أنك ستكون شاهدًا فقط، إذا ساعدتنا في القبض عليهم"

بدا متردّداً، لكنها فرصة جاءته إلى منزله. أيتركها؟

شعر أحمد أنه سيوافق، فأكمل ضاغطًا عليه في الحديث "ألا تريد فتح صفحة جديدة؟ صفحة بيضاء، تبدأ فيها من جديد؟"

وكأنه اطّلع على أفكاره!

مجيئه إليه أنقذه من إلقاء نفسه إلى الهلاك.

لقد قرر الانتقام من المنظمة بالفعل، كان سيتحرك بمفرده، ولكن زيارة الضابط أحمد، التي لم تكن في حسبانه، أحجمته. ليفكر في الأمر مُجدّدًا، ألا يستحق فرصة جديدة؟

فتنهد قبل أن ينطق متسائلاً:

"كيف؟"

لا يريد هذه الترقية، وبئس هذا القرب .

أقسم على إنهائهم، هؤلاء الطغاة. من تسببوا في كل تلك الجرائم. وبكل فخر جاءوا لينقذوه من المكيدة، التي أشرفوا على خطتها.

يا لوقاحتهم!

****

"صفحة بيضاء"

قبل أن يتخذ قرار متسرع قد يدمره، وقبل التصرف بطريقة قد تودي بحياته، جاءه هذا الزائر. المنقذ.

"سيد خالد، كيف حالك؟"

"الضابط أحمد، مرحباً، تفضل"

"أريد التحدث معك حول موضوع مهم"

"خيراً؟"

"لن أحدثك عن الماضي، فقد انتهى، ولن نستطيع التغيير فيه. لكن تغيير الحاضر بأيدينا"

"لا أفهم، ماذا تريد بالتحديد يا حضرة الضابط؟"

قطع أفكاره صوت توفيق: "أنت في يوم حظك يا خالد، السيد عمران أراد مقابلتك اليوم"

نظر إليه باستغراب، ثم أردف متسائلاً: "ومَن السيد عمران؟"

"أنت تمزح، أليس كذلك؟" ثم تساءل في دهشة، "هل هناك من لا يعلم السيد عمران؟ إنه الرئيس الكبير، صاحب الأمر. كيف لا تعرفه؟"

ليس غريباً عليه، فلماذا يعرفه؟ فمن يتمنون ملاقاته، هم المتوّقون للعمل معه. يتملقون من أجل رضاه عنهم، فيثق بهم، ويمنحهم مهمات أكبر.

فهل ينطبق هذا عليه؟

إنه شخص يريد الذهاب عنهم للأبد. مجبور عليهم.

بالتأكيد لن يكون مهتماً.

ولكن يبدو أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن!

من بين الجميع، اختاره هو.

نال إعجابه بذكائه. تمنى لو أصبح غبيًّا!

ذكاؤه يُستخدم في ضرر أبرياء... فاض به الكيل. لا يستطيع الصمت كثيراً.

خرج من السجن، يظن أنه قد نال حريته، لكنه لم يعلم أنه قد وقع في براثن أسوأ من السجن، فأصبح أسيراً لمنظمة تتحكم في كل شيء. كان سجيناً بريئًا، فأصبح حرًّا مذنبًا. فما السبيل إلى النجاة؟!

هل هو حر بالفعل؟ لقد أنقذ نفسه من جدران السجن، لينتقل إلى سجن أكبر، داخل المنظمة.

تذكّر عندما كان يتخبط الدكتور سامي من أجل إخباره بشيء ما، وما كان إلا الحقيقة. أدرك الآن سبب منع توفيق من التحدّث معه، بالتأكيد كي لا يكشف أمره.

لكنه كشفها الآن...

علم أن توفيق هو من حرّض الدكتور سامي، وألهمه بتلك الفكرة، فكرة إلقامه في قضية مخدرات. وأدرك أنه قد ظلم نفسه، عندما وقّع على صكّ ملكيته للمنظمة التي لا ترحم، تفعل به ما تشاء!

وكأنه عبد لديهم، يباع ويشترى!

ألم يولّ زمن العبيد؟

****

ما يحدث داخل المنظمة، لا تتقبله روحه. يخشى من الاعتياد. فإن اعتاد، سيكون قد فقد نفسه للأبد .

ماذا يفعل؟

الفصل الثاني عشر: "حسك ملكية"

بدأ العمل في أحد معارض السيارات التابعة لتوفيق، حيث استلم هاتفه الجديد، وبدلته الجديدة، ومفاتيح سيارته.

فضلاً عن راتبه الخياليّ، الذي استلمه أوّل الشهر .

دون مجهود يُذكر. أُغْرِق بكل تلك الميزات.

تُرى أيّ مقابل سيدفع؟

****

مضى شهران على عمله مع توفيق. لم يستنفده في العمل بادئ الأمر. حتى بدأ خالد في الانخراط تدريجياً.

كسر توبته. وعاد إلى السرقات من جديد، بل فعل الأسوأ؛ حيث شاركهم في ممارسة العنف على بعض الأعداء. أو مَن يعترضون طريقهم.

كل ما يفعله على مضض، فكّر في الاعتراض. لكنه قوبل بالتهديد الصريح. فأدرك أنه أقحم نفسه في بلاء لا رجعة منه .

حينما أراد إنقاذ نفسه من السجن، فقدها خارجه .

أما بخصوص البصمات، استغل مساعدته للممرض، الذي قابله في قسم الطوارئ، في حمل أكياس الدم؛ كي يحصل على بصماته.

****

رآه في أسوأ حالة يمكن أن يقع بها الإنسان. بعد سمعته الطيبة ونجاحه وشهرته الكبيرة، يُجرّ اليوم أمامه مُقيّدًا بالأصفاد.

تلاقت أنظارهما معًا، ثم سمعه ينادي باسمه كالمجنون،

"خالد، اسمعني، يا خالد" صاح الدكتور سامي بصوت مرتفع، "لست الفاعل، اسمعني، أعلم من فعل بك..."

ثمّ اختفى من أمامه، وذهبوا به بعيدًا إلى ظلمات السجن. لم يستطع أن يكمل حديثه. ماذا أراد أن يقول عجبًا؟

جاءه صوت توفيق قاطعًا لأفكاره، "دعك منه، هيّا بنا إلى حياتك الجديدة"، فتبعه إلى سيارته، لقد أصبح ممتنًّا له؛ فهو لم يساعده في إثبات براءته وحسب، بل ساعد في القبض على المتهم الحقيقي أيضًا.

وكان لا بدَّ من دفع ثمن براءته، ببيع نفسه للمنظمة! ألم يكن الثمن غاليًا!

****

هو يعرض عليه فرصة نجاته، ليس الأمر مثل كل مرة.

إنه يائس، ضعيف. لقد أحسن توفيق اختيار الوقت الملائم هذه المرة.

يبدو أنه قد أقسم على ضمِّه إلى المنظمة!

وقد كان...

تمكّن منه اليأس في لحظة ضعف، فقبل العرض الذي رفضه لسنوات. قرر أن يستغل الفرصة لينقذ نفسه من ظلمة هذا السجن الذي سقط فيه.

ووافق على الانضمام للمنظمة!

****

لم يكن يصدّق أنه سيلتقي بحرّيته من جديد. لقد صدق توفيق في ادّعائه حقًّا؛ أنه يستطيع إثبات براءته، وقد فعل.

علم مؤخّرًا باعترافات الممرضين على مَن أعطاهم الأمر، الدكتور سامي، وقُبِضَ عليه أثناء محاولة هروبه خارج الدولة.

لقد رسم خطة ذكية، وبذل الكثير من مجهوده الذهني للانتقام منه!

فجعل الممرّض "تحسين"، الذي كان يأتي لمتابعة والده، يتولّى أمر وضع حقيبة المخدرات في منزله.

بل فقد فرصة وداعه، فقد حق دفنه.

لم يسمع آهاته، لم يكن معه، كان حبيس جدران السجن هنا. يختنق بداخلها.

لم يكن معه أثناء تألمه، ومرضه.

لم يكن معه أثناء رحيله للأبد!

تذّكر عندما كاد يفقده في ذلك اليوم، الذي توقفت فيه نبضات قلبه، وعلم مرضه بعدها.

أيّما كان شعوره حينها. فقد ازداد أضعافًا الآن، حتى فاض.

شعر بالعجز، الخذلان، التيه، الوحدة، الفقدان، الظلم، اليأس!

وفي تلك اللحظة، حيث وصل شعوره باليأس أقصى درجاته. جاءه عرض، تكرر العديد من المرات سابقًا. ولكن اليوم، بدا كأنه فريد من نوعه، كأنه عرض لا يُرفض. رآه وكأنه سبيل النجاة!

"خالد هاشم، لديك زيارة"

ليس موعد زيارته الذي اعتاد عليه؟

مَن يقدم على زيارته الآن؟

إنه توفيق!

نظر إليه مطولًا، وكأنه يحدّق في الفراغ!